ورقات في

أصول التَّفسير

جمعهُ

أبو فاطمة عصامُ الدِّين

مقدمة

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسنَا ومنْ سيّئاتِ أعمالنَا منْ يهدهِ اللهُ فلَا مضلَّ لهُ ومنْ يضلِلْ فلَا هادِيَ لهُ وأشهدُ أنَّ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ ﷺ.

(يَا أَيُّهَا الذّينَ ءَامَنُوا اتَّقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إلَّا وَأنْتُمْ مُسْلِمُونْ)

آل عمرن 102

(يَا أيَهَاَّ النَّاس اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَذّي خَلَقكُمْ مَن نَّفس وَّاحدة وَّخلق منها زوجهَا وبثَّ منهُمَا رِجَالًا كثِيرًا وَّنسَاءً وَّاتَّقوا اللهَ الَّذي تسَائَلُونَ بهِ الأَرْحَامَ إنَّ اللهَ كانَ علِيكُمْ رَقِيبًا)النّساء 1

(يَا أَيَّهَا الذَين ءَامَنُوا اتَّقُوا الله وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا¤يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكِمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)الاحزاب 71

أما بعد:

فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ وخيرُ الهَدْي هَدْي محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وشرُّ الأمورِ محدثاتهَا و كلَّ محدثةٍ بدعةٍ وكلَّ بدعةٍ ضلالةٍ وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ وبعدُ .

وبعد:

فهذهِ ورقاتٌ جمعتهَا من كتاب العلامةِ السَّعدي المسمَّى بـ "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" وقد جمع فيه رحمه الله تعالى أقوال أهل العلم في أصول التفسير وكلياته، وقد جمعتهُ كما هو على فصلين الأول من بدائع الفوائد لابن القيم والثَّاني في أصول التفسير وكلياتهِ للعلَّامة الشيخ السعدي وأسأل الله أن به المسلمين، فربَّ مبلغ أوعى من سامع، وصلَّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبهِ وسلم.

وكتب

أبو فاطمة عصام الدين.

فوائد مهمة
تتعلق بتفسير القرآن من «بدائع الفوائد»
لابن القيم رحمه الله ـ تعالى[1] ـ

قال: **فصل** النكرة في سياق النفي تعم، مستفاد من قوله تعالى: ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾، ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾، وفي الاستفهام من قوله تعالى: ﴿هل تعلم له سمياً﴾، وفي الشرط من قوله: ﴿فإما ترين من البشر أحداً﴾، ﴿وإن أحد من المشركين استجارك﴾.

وفي النهي من قوله تعالى: ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾.

وفي سياق الإثبات بعموم العلة والمقتضى، كقوله: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾، وإذا أضيف إليها «كل» نحو ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾، ومن عمومها بعموم المقتضي: ﴿ونفس وما سواها﴾.

فصل ويستفاد عموم المفرد المحلى باللام من قوله: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾، وقوله: ﴿ويقول الكافر﴾، وعموم المفرد المضاف من قوله: ﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه﴾، ﴿وكتابه﴾ قرأ أهل البصرة وحفص: ﴿وكتبه﴾ على الجمع، وقرأ الآخرون: ﴿وكتابه﴾ على التوحيد، وقوله: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾، والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم.

وعموم الجمع المحلى باللام من قوله: ﴿وإذا الرسل أقتت﴾ وقوله: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم﴾، وقوله تعالى: ﴿إن المسلمين والمسلمات...﴾ إلى آخرها، والمضاف من قوله: ﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾.

وعموم أدوات الشرط من قوله تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾، وقوله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾، وقوله: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾، وقوله: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾،

وقوله: ﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾، وقوله: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾، وقوله: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾، هذا إذا كان الجواب طلباً مثل هاتين الآيتين، فإن كان خبراً ماضياً لم يلزم العموم؛ كقوله: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾، ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله﴾، وإن كان مستقبلاً فالتزموا رَدّ العموم[١] موارده للعموم؛ كقوله تعالى: ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾، وقوله: ﴿وإذا مروا بهم يتغامزون﴾، وقوله: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾، وقد لا يعم، كقوله تعالى: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾.

فصل ويستفاد كون الأمر المطلق للوجوب من ذمِّهِ لمن خالفه، وتسميته إياه عاصياً، وترتيبه عليه العقاب العاجل أو الآجل.

ويستفاد كون النهي للتحريم من ذَمِّه لمن ارتكبه، وتسميته عاصياً، وترتيبه العقاب على فعله.

ويستفاد الوجوب بالأمر تارة، وبالتصريح بالإيجاب والفرض والكتب، ولفظة على، ولفظة حق على العباد وعلى المؤمنين.

ويستفاد التحريم من النهي، والتصريح بالتحريم والحظر، والوعيد على الفعل، وذم الفاعل، وإيجاب الكفارة بالفعل، وقوله: «لا ينبغي»: فإنها في لغة القرآن والرسول للمنع عقلاً وشرعاً، ولفظة «ما كان لهم كذا وكذا» «ولم يكن لهم»، وترتيب الحد على الفعل، ولفظة «لا يحل» و «لا يصلح»، ووصف الفعل بأنه فساد، وأنه من تزيين الشيطان وعمله، وأن الله تعالى لا يحبه ولا يرضاه لعباده، ولا يزكي فاعله، ولا يكلمه، ولا ينظر إليه، ونحو ذلك.

وتستفاد[٢] الإباحة من الإذن والتخيير، والأمر بعد الحظر، ونفي الجناح والحرج والإثم والمؤاخذة، والإخبار بأنه يعفو عنه، والإقرار على فعله في زمن الوحي، وبالإنكار على من حرم الشيء، والإخبار بأنه خلق لنا كذا وجعله لنا، وامتنانه علينا به وإخباره عن فعل من قبلنا غير ذامٍّ لهم عليه، فإن اقترن بإخباره مدح دل على رجحانه استحباباً أو وجوباً.

فصل وكل فعل عظمه الله ورسوله أو مدحه أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به، أو أحبه، أو أحب فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالطيب، أو البركة، أو الحسن، أو نصبه سبباً لمحبته أو ثوابه عاجلاً أو آجلاً[1]، أو نصبه سبباً لذكره لعبده، أو لشكره له، أو لهدايته إياه، أو لإرضاء فاعله، أو وصف فاعله بالطيب، أو وصف الفعل بأنه معروف، أو نفي الحزن والخوف عن فاعليه[2]، أو وعده بالأمن، أو نصبه سبباً لولايته، أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله، أو وصفه بكونه قربة، أو أقسم به أو بفاعله كالقسم بخيل المجاهدين وإثارتها[3]، أو ضحك الرب جل جلاله عن فاعله، أو عجبه به؛ فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب.

فصل وكل فعل طلب الشارع تركه أو ذم فاعله، أو عيب عليه أو مقت فاعله أو لعنه، أو نفى محبته إياه أو محبة فاعله أو نفى الرضا به أو الرضا عن فاعله، أو شبه فاعله بالبهائم أو الشياطين أو جعله مانعاً من الهدى أو وصفه بسوء أو كراهة أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه، أو جعل سبباً لنفي الفلاح أو لعذاب عاجل أو آجل أو لذم أو لوم أو ضلالة أو معصية، أو وصفه بالخبث[4] أو رجس أو نجس، أو بكونه فسقاً أو إثماً أو سبباً لإثم أو رجس أو لعن أو غضب أو زوال نعمة أو حلول نقمة أو حد من الحدود أو قسوة أو خزي أو ارتهان نفس، أو لعداوة الله ومحاربته أو الاستهزاء به وسخريته، أو جعله سبباً لنسيانه لفاعله، أو وصف نفسه بالصبر عليه أو الحلم عنه أو الصفح، أو دعا إلى التوبة منه، أو وصف فاعله بخبث أو احتقار، أو نسبه إلى الشيطان وتزيينه أو تولي الشيطان لفاعله، أو وصفه بصفة ذم مثل كونه ظلماً أو بغياً أو عدواناً أو إثماً، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله، أو شكوا إلى الله من فاعله، أو جاهروا فاعله بالعداوة، أو نصب سبباً لخيبة فاعله عاجلاً، أو آجلاً، أو رتب عليه حرمان الجنة، أو وصف فاعله بأنه عدو لله أو الله عدوه، أو أعلم فاعله بحرب من الله ورسوله، أو حمل فاعله إثم غيره، أو قيل فيه لا ينبغي هذا أو لا يصلح، أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل يضاده، أو هجر فاعله، أو تلاعن فاعلوه في الآخرة، أو تبرأ بعضهم من بعض، أو وصف

فاعله بالضلالة، أو أنه ليس من الله في شيء، أو أنه ليس من الرسول وأصحابه، أو قرن بمحرم ظاهر التحريم في الحكم والخبر عنه[١] بخبر واحد، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح، أو جعل سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو قيل لفاعله هل أنت منتهٍ، أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إبعاد أو طرد أو لفظة قتل من فعله، أو قاتل الله من فعله، أو أخبر أن فاعله لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه، أو أن الله لا يصلح عمله ولا يهدي كيده، أو أن فاعله لا يفلح ولا يكون يوم القيامة من الشهداء ولا من الشفعاء، أو أن الله يغار من فعله أو نبه على وجه المفسدة فيه، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفاً ولا عدلاً، أو أخبر أن من فعله قيض له الشيطان فهو له قرين، أو جعل الفعل سبباً لإزاغة [اللّهِ] قلب فاعله أو صرفه عن آياته وفهم آلائه[٢]، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل لِمَ فعل؟ نحو: ﴿لم تصدون عن سبيل الله من آمن﴾، ﴿لم تلبسون الحق بالباطل﴾، ﴿ما منعك أن تسجد﴾، ﴿لم تقولون مالا تفعلون﴾؛ ما لم يقترن به جواب من السؤال[٣]؛ فإذا قرن به جواب كان بحسب جوابه، فهذا ونحوه يدل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أطرد من دلالته على مجرد الكراهة.

وأما لفظة يكرهه الله ورسوله أو مكروه، فأكثر ما يستعمل في المحرم، وقد يستعمل في كراهة التنزيه.

وأما لفظة: وأما أنا فلا أفعل، فالمحقق منه الكراهة؛ كقوله ﷺ: «أما أنا فلا آكل متكئاً»[٤].

وأما لفظة: ما يكون لك، وما يكون لنا، فأطرد استعمالها في المحرم نحو ﴿ما يكون لك أن تتكبر فيها﴾، ﴿ما يكون لنا أن نعود فيها﴾، ﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾.

فصل وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجناح والإذن والعفو وإن شئت فافعل وإن شئت فلا تفعل، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع وما يتعلق بها

من الأفعال، نحو: ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾ ونحو: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾، ومن السكوت عن التحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي.

فائدة التعجب كما يدل على محبة الله تعالى للفعل، نحو «عجب ربك من شاب ليست له صبوة»[(١)] ونحوه قد يدل على بغض الفعل؛ كقوله: ﴿وإن تعجب فعجب قولهم﴾، وقوله: ﴿بل عجبت ويسخرون﴾، وقوله: ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾، وقد يدل على امتناع الحكم وعدم حسنه؛ كقوله: ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله﴾، ويدل على حسن المنع منه قدراً وأنه لا يليق به فعله؛ كقوله تعالى: ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾.

فائدة نفي التساوي في كتاب الله قد يأتي بين الفعلين؛ كقوله ـ تعالى ـ: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾ الآية، وقد يأتي بين الفاعلين؛ كقوله: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله﴾، وقد يأتي بين الجزاءين؛ كقوله: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾، وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور...﴾ الآية.

فائدة في ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على: بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر.

فائدة السياق يرشد إلى بيان المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم[(٢)] احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾، كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير.

فائدة إخبار الرب عن المحسوس الواقع له عدة فوائد:

منها: أن يكون توطئة وتقدمة لإبطال ما بعده.

ومنها: أن يكون موعظة وتذكرة.

ومنها: أن يكون شاهداً على ما أخبر به من توحيده وصدق رسوله وإحياء الموتى.

ومنها: أن يذكر في معرض الامتنان.

ومنها: أن يذكر في معرض اللوم والتوبيخ.

ومنها: أن يذكر في معرض المدح والذم.

ومنها: أن يذكر في معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه. وغير ذلك من الفوائد[1].

انتهى كلامه رحمه الله، وهو في غاية النفاسة والاشتمال على كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن؛ فجزاه الله خيراً.

قلت: وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثنيت فيه وأعيدت:

فمنها: ضرب الأمثال، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها.

ومنها: ذكر صفات أهل السعادة والشقاوة، وفي ذلك **فوائد عديدة**:

منها: أن الأوصاف التي يوصف بها أهل الخير تدل على محبة الله ورضاه، وأنها محمودة.

والصفات التي يوصف بها أهل الشر تدل على بغض الله لها وأنها مذمومة.

ومنها: ما يكرم الله به أولياءه من الثناء الحسن بين عباده فهو ثواب معجل، ويهين به أعداءه من الأوصاف القبيحة فيكون عقاباً معجلاً.

ومنها: أن فيه حثًّا للنفوس على الاقتداء بأهل الخير ومنافستهم، وتنشيط العمال على الأعمال ببيان من عملها من أولياء الله، وفيه الترهيب عن أفعال أهل الشر وتبغيض المعاصي التي أثرت مع عامليها ما أثرت.

ومنها: الاعتبار بصفات أهل الخير والشر، وأن من فعل مثل فعلهم؛ ناله ما نالهم.

وقد حث تعالى على الاعتبار في غير موضع من كتابه، وحقيقته: العبور من شيء إلى شيء وقياس الشيء على نظيره.

ومنها: أن العبد إذا نظر[١] إلى أعمال أهل الخير وعجزه عن القيام بها أوجب له ذلك الإزراء على نفسه واحتقارها، وهذا هو عين صلاحه، كما أن رؤيته نفسه بعين الإعجاب والتكبر هو عين فساده، إلى غير ذلك من الفوائد.

ومنها: ذكر صفات الله وأسمائه وأفعاله وتقديسه عن النقائص، وفي ذلك **فوائد عظيمة**:

منها: أن هذا العلم ـ وهو العلم المتعلق بالله تعالى ـ أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق، فالاشتغال بفهمه والبحث التام عنه اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواهب.

ومنها: أن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته وخوفه ورجائه وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته والتفقه في فهم معانيها، وقد اشتمل القرآن من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيره من تفاصيل ذلك وتوضيحها والتعرف بها إلى عباده وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه.

ومنها: أن الله خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه وهذا[٢] هو الغاية المطلوبة منهم.

فالاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له، وَقَبِيحٌ بعبد لم تزل نعم الله عليه متواترة وفضله عليه عظيم من كل وجه أن يكون جاهلاً بربه معرضاً عن معرفته.

ومنها: أن أحد أركان الإيمان بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله، وليس الإيمان مجرد قوله: «آمنت بالله» من غير معرفةٍ بربه، بل حقيقة الإيمان: أن يعرف الرب الذي يؤمن به ويبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته حتى يبلغ درجة اليقين. وبحسب معرفته بربه، يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه؛ ازداد إيمانه وكلما نقص؛ نقص. وأقرب طريق يوصله إلى ذلك تدبر صفاته وأسمائه من القرآن، والطريق في ذلك إذا مر به اسم من أسماء الله أن يثبت[٣] له ذلك المعنى وكماله

وعمومه وينزهه[١] عما يضاد ذلك.

ومنها: أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها، حتى أن العارف به حقيقة المعرفة يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله وعلى ما يشرعه من الأحكام؛ لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة بين العدل والفضل[٢] والحكمة.

وكذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله، فأخباره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة، وهذا العلم أعظم وأشهر من أن ينبه عليه لوضوحه.

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ومنها: ذكر الأنبياء والمرسلين وما أرسلوا به وما جرى لهم مع أممهم، وفي ذلك **عدة فوائد**:

منها: أن من تمام الإيمان بهم معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم، وكلما كان المؤمن بذلك أعرف كان أعظم إيماناً بهم ومحبة لهم وتعظيماً لهم وتعزيراً وتوقيراً.

ومنها: أن من بعض حقوقهم علينا ـ خصوصاً النبي محمد ﷺ ـ معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة، ولا سبيل لذلك إلا بمعرفة أحوالهم.

ومنها: أن معرفة الأنبياء موجبة لشكر الله تعالى على ما منَّ به على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولاً منهم، يزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة بعد أن كانوا في ضلال مبين.

ومنها: أن الرسل هم المربون للمؤمنين الذين ما نال المؤمنون[٣] مثقال ذرة من الخير ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر إلا على أيديهم وبسببهم، فقبيح بالمؤمن أن يجهل حالة مربيه ومزكيه ومعلمه، وإذا كان من المستنكر جهل الإنسان بحال أبويه ومباعدته لذلك فكيف بحالة الرسول الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم الحقيقي الذي حقه مقدم على سائر الحقوق بعد حق الله تعالى.

ومنها: أن في معرفة ما جرى لهم وما جرى عليهم تحصل للمؤمنين[٤] الأسوة

والقدوة، وتخف عنهم كثير من المقلقات والمزعجات؛ لأنها مهما بلغت من الثقل والشدة فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياء، قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾، ومن أعظم الاقتداء بهم الاقتداء بتعليماتهم، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق، والصبر على التعليم، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن. وبهذا وأمثاله كان العلماء ورثة الأنبياء.

ومن فوائد معرفة الرسول ﷺ معرفة الآيات القرآنية المنزلة عليه، وفهم المعنى والمراد منها موقوف على معرفة أحوال الرسول، وسيرته مع قومه، وأصحابه وغيرهم من الناس، فإن الأزمنة والأمكنة والأشخاص تختلف اختلافاً كثيراً؛ فلو أراد الإنسان أن يصرف همه لمعرفة معاني القرآن من دون معرفة منه لذلك؛ لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله وعلى مراد الله من كلامه شيء كثير، وهذا إنما يعرفه من عرف كيف كثر حمل مراد الله ورسوله على العرف الحادث فوقع الخلل الكثير[1].

ولغير ذلك من الفوائد المفيدة والنتائج السديدة.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي الموجه لهذه الأمة وغيرها، وهذا هو المقصود منهم، وفي معرفة ذلك عدة فوائد:

منها: أن الله تعالى حث على معرفة حدود ما أنزل على رسوله، وذم من لم يعرف ذلك؛ ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده: الأوامر والنواهي التي كلفنا بها، وألزمنا بالقيام بها وتعلمها وتعليمها، ولا سبيل إلى امتثالها أو اجتنابها إلا بمعرفتها، ليتأتى فعلها أو تركها، وذلك أن المكلف إذا أمر بأمرٍ وجب عليه أولاً معرفة ما هو الذي أمر به، وما يدخل به وما لا يدخل، فإذا عرف ذلك استعان بالله واجتهد في امتثاله بحسب القدرة والإمكان، وكذلك إذا نهي عن أمر من الأمور وجب عليه معرفة ذلك المنهي وحقيقته، ثم يبذل جهده مستعيناً بربه على تركه امتثالاً لأمر الله واجتناباً لنهيه، وامتثال الأمر واجتناب النهي كل منهما واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فعرفت أن العلم بها قبل العمل، ومتقدم عليه.

ومنها: أن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يمكن حصولها وتحصيلها إلا بعد معرفة الخير ليدعو له، ومعرفة المعروف ليأمر به ومعرفة المنكر لينهى عنه، والقرآن مشتمل على ذلك أعظم اشتمال، ومتضمن له أكمل تضمن.

ومن علوم القرآن: أحوال اليوم الآخر، وهو ما يكون بعد الموت مما أخبر به الله في كتابه أو أخبر به رسوله من أحوالِ الموت والقبر والموقف والجنة والنار، وفي العلم **بذلك فوائد كثيرة**:

منها: أن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان الستة التي لا يصح الإيمان بدونها، وكلما ازدادت معرفته بتفاصيله ازداد إيمان العبد به[١].

ومنها: أن معرفة ذلك[٢] حقيقة المعرفة؛ يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء اللذين إن خلا القلب منهما؛ خرب كل الخراب، وإن عمر بهما؛ أوجب له الخوفُ الانكفافَ عن المعاصي، والرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يخاف منها وتحذر: كأحوال القبر وشدته، وأحوال الموقف الهائلة، وصفات النار المفظعة، وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم والحبرة والسرور، ونعيم القلب والروح والبدن؛ فيحدث بسبب ذلك الاشتياق الداعي للاجتهاد في السعي للمحبوب المطلوب بكل ما يقدر عليه.

ومنها: أنه يعرف بذلك فضل الله وعدله في المجازاة على الأعمال الصالحة والسيئة الموجب لكمال حمده والثناء عليه بما هو أهله، وعلى قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب يعرف بذلك فضل الله وعدله وحكمته.

ومن علوم القرآن: مجادلة المبطلين، ودفع شبه الظالمين، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة النقلية، وهذا الفن من علوم القرآن من خواص العلماء الربانيين والجهابذة الراسخين والعقلاء المستبصرين.

وقد اشتمل القرآن من الأدلة العقلية والقواطع البرهانية ما لو جمع ما عند جميع المتكلمين من حق لكان بالنسبة إليه كنقرة عصفور بالنسبة لماء البحر. ذلك بأن القرآن هو الحق.

وقد اشتمل على الحق والصدق والعدل والميزان العادل والقسط والصلاح

والفلاح، فإنْ ذَكَرَ التوحيد والشرك، وأمر بالأول ونهى عن الثاني أقام من البراهين القاطعة على صحة التوحيد وحسنه وتعينه طريقاً للنجاة، وقبح الشرك وبطلانه وكونه هو الطريق للهلاك؛ ما يجعل ذلك للبصيرة كالشمس في نحر الظهيرة.

وإن أمر بالأوامر الشرعية وحث على الآداب ومكارم الأخلاق رأيته ينبه العقول النيرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية، التي[١] يحتاجونها في معاشهم ومعادهم ما يجزم بأنه[٢] لا أحسن منها، وأن حكمته تقتضي الأمر بها أشد اقتضاء.

وإن نهى عن المحارم والقبائح والخبائث أخبر بما في ضمنها من الفساد والضرر والشر الحاصل بتناولها، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم وتنزيههم عنها وتكريمهم وتعلية أقدارهم عن التلبس بها فوق كل نعمة، فالمأمورات مشتملة[٣] على الصلاح، والمحرمات مشتملة[٣] على المفاسد.

وإن شرع في الحجاج للمبطلين وتزييف شبه المشبهين وبطلان مذاهب الضالين، فقل ما شئت من إحقاق حق، ودمغ باطل، وإرشاد ضالٍ، وإقامة الحجة على المعاند، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شيء من الحق، بل هو على اسمه باطل لا حقيقة له، إن هي إلا أسماء يسمون بها الباطل، إذا جردت تبينت هباء منثوراً، ورأيته يسوق البراهين العقلية بأوضح عبارة وأوجزها وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء؛ فيجمع بين الدليل العقلي والنقلي في كلمة واحدة إيجازاً غير مخلٍ بالمطلوب، وتارة يفصل ذلك ويسرد من البراهين ما يكفي بعضه بالبيان. فلله الحمد والشكر.

فهذه مقدمة نافعة ـ إن شاء الله ـ ينبغي استقراؤها في كل مواردها، والتنبيه لكل ما يرد من هذه المطالب على وجه التفصيل، فمن استعملها في كل ما يرد عليه من الآيات؛ انتفع بها نفعاً عظيماً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

أصول وكليات[1]

من أصول التفسير وكلياته ـ لا يستغني عنها المفسر للقرآن

النكرة في سياق النفي، أو سياق النهي، أو الاستفهام، أو سياق الشرط، تعم، وكذلك المفرد المضاف يعم. وأمثلة ذلك كثيرة: فمتى وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات أو وجدت مفرداً مضافاً إلى معرفة، فأثبت جميع ما دخل في ذلك اللفظ، ولا تعتبر سبب النزول وحده، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وينبغي أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة، والتي لا تزال تحدث على العمومات القرآنية؛ فبذلك تعرف أن القرآن تبيان لكل شيء، وأنه لا يحدث حادث ولا يستجد أمر من الأمور إلا وفي القرآن بيانه وتوضيحه.

ومن أصوله: أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وعلى أسماء الأجناس، تفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعاني.

ومن كليات القرآن: أنه يدعو إلى توحيد الله ومعرفته، بذكر أسماء الله وأوصافه وأفعاله الدالة على تفرده بالوحدانية وأوصاف الكمال، وإلى أنه الحق، وعبادته هي الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل. ويبين نقص كل ما عبد من دون الله من جميع الوجوه.

ويدعو إلى صحة ما جاء به الرسول محمد ﷺ وصدقه ببيان أحكامه، وتمامه وصدق إخباراته كلها، وحسن أحكامه، ويبين ما كان عليه الرسول ﷺ من الكمال البشري الذي لا يلحقه فيه أحد من الأولين والآخرين، ويتحداهم بأن يأتوا بمثل ما جاء به إن كانوا صادقين، ويقرر ذلك بشهادته تعالى بقوله وفعله وإقراره إياه، وتصديقه له بالحجة والبرهان وبالنصر والظهور وبشهادة أهل العلم المنصفين، ويقابل بين ما جاء به من الحق في أخباره وأحكامه وبين ما كان عليه أعداؤه

والمكذبون به من الكذب في أخبارهم والباطل في أحكامهم، كما يقرر ذلك بالمعجزات المتنوعة.

ويقرر الله المعاد بذكر كمال قدرته، وخلقه للسماوات والأرض اللتين هما أكبر من خلق الناس، وبأنَّ الذي بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى، وبأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى.

ويذكر أيضاً أيامه في الأمم ووقوع المثلات التي شاهدها الناس في الدنيا وأنها نموذج من جزاء الآخرة.

ويدعو جميع المبطلين، من الكفار والمشركين، والملحدين بذكر محاسن الدين، وأنه يهدي للتي هي أقوم في عقائده وأخلاقه وأعماله، وبيان ما لله من العظمة والربوبية والنعم العظيمة، وأن من تفرد بالكمال المطلق والنِّعَم كلها هو الذي لا تصلح العبادة إلا له، وأن ما عليه المبطلون إذا مُيِّزَ وحُقِّقَ وُجِد **شرًّا** وباطلاً، وعواقبه وخيمة.

ومن أصول التفسير: إذا فهمت ما دلت عليه الآيات الكريمة من المعاني مطابقة وتضمناً؛ فاعلم أن لوازم هذه المعاني وما لا تتم إلا به؛ وشروطها وتوابعها تابعة لذلك المعنى، فما لا يتم الخبر إلا به فهو تابع للخبر، وما لا يتم الحكم إلا به؛ فهو تابع للحكم.

وإن الآيات التي يفهم منها التعارض والتناقض ليس فيها تناقض ولا تعارض، بل يجب حمل كل منها على الحالة المناسبة اللائقة بها، وأن حذف المتعلقات من مفعولات وغيرها يدل على تعميم المعنى؛ لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لا يجوز حذف ما لا يدل عليه السياق اللفظي أو القرينة الحالية.

كما أن الأحكام المقيدة بشروط أو صفات تدل على أن تلك القيود لا بدَّ منها في ثبوت الحكم.

إذا أمر الله بشيء كان ناهياً عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان آمراً بضده، وإذا أثنى على نفسه بنفي شيء من النقائص كان إثباتاً للكمال المنافي لذلك النقص، وكذلك إذا أثنى على رسله وأوليائه ونزههم عن شيء من النقائص فهو مدح لهم بما يضاد ذلك النقص، ومثله نفي النقائص عن دار النعيم يدل على إثبات ضد ذلك.

ومن الكليات: أنه إذا وضح الحق وظهر ظهوراً جلياً لم يبق للمجادلات العلمية والمعارضات العملية محل، بل تبطل المعارضات وتضمحل المجادلات.

ما نفاه القرآن؛ فإمَّا أن يكون غير موجود، أو كان موجوداً، ولكنه غير مفيد ولا نافع.

الموهوم لا يدفع المعلوم، والمجهول لا يعارض المحقق؛ وما بعد الحق إلا الضلال.

ذكر الله في القرآن الإيمان والعمل الصالح في مواضع كثيرة، رتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل والآثار الحميدة شيئاً كثيراً، فالإيمان: هو التصديق الجازم بما أمر الله ورسوله بالتصديق به المتضمن لأعمال الجوارح، والعمل الصالح: هو القيام بحقوق الله وحقوق عباده.

وكذلك أمر الله بالتقوى ومدح المتقين، ورتب على التقوى حصول الخيرات وزوال المكروهات، والتقوى الكاملة امتثال أمر الله وأمر رسوله واجتناب نهيهما وتصديق خبرهما.

وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه كانت التقوى اسماً لتوقي جميع المعاصي، والبر اسما لفعل الخيرات. وإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر.

وذكر الله الهدى المطلوب في مواضع كثيرة، وأثنى على المهتدين وأخبر أن الهدى بيده، وأمرنا بطلبه منه وبالسعي في كل سبب يحصل الهدى، وذلك شامل لهداية العلم والعمل، فالمهتدي من عرف الحق وعمل به، وضده الغي والضلال، فمن عرف الحق ولم يعمل به؛ فهو الغاوي، ومن جهل الحق؛ فهو الضال.

أمر الله بالإحسان وأثنى على المحسنين، وذكر ثوابهم المتنوع في آيات كثيرة. وحقيقة الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك، وأن تبذل ما تستطيعه من النفع المالي والبدني والقولي إلى المخلوقين.

وأمر بالإصلاح وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يضيع ثوابهم وأجرهم، والإصلاح هو: أن تسعى في إصلاح عقائد الناس، وأخلاقهم، وجميع أحوالهم، بحيث تكون على غاية ما يمكن من الصلاح، وأيضاً يشمل إصلاح الأمور الدينية والأمور الدنيوية، وإصلاح الأفراد والجماعات.

وضد هذا الفساد. والإفساد قد نهى عنه، وذم المفسدين وذكر عقوباتهم المتعددة، وأخبر أنه لا يصلح أعمالهم الدينية والدنيوية.

أثنى الله على اليقين وعلى الموقنين، وأنهم هم المنتفعون بالآيات القرآنية والآيات

الأفقية. واليقين أخص من العلم؛ فهو: العلم الراسخ المثمر للعمل والطمأنينة.

أمر الله بالصبر وأثنى على الصابرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل في عدة آيات نحو تسعين موضعاً، وهو يشمل أنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله حتى يؤديها كاملة من جميع الوجوه، والصبر عن محارم الله حتى ينهى نفسه الأمارة بالسوء عنها، والصبر على أقدار الله المؤلمة؛ فيتلقاها بصبر وتسليم غير متسخط في قلبه ولا بدنه ولا لسانه.

وكذلك أثنى الله على الشكر وذكر ثواب الشاكرين، وأخبر أنهم أرفع الخلق في الدنيا والآخرة. وحقيقة الشكر هو: الاعتراف بجميع نعم الله، والثناء على الله بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم.

وذكر الله الخوف والخشية في مواضع كثيرة، أمر به وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم وأنهم المنتفعون بالآيات التاركون للمحرمات.

وحقيقة الخوف والخشية: أن يخاف العبد مقامه بين يدي الله، ومقامه عليه؛ فينهى نفسه بهذا الخوف عن كل ما حرم الله.

والرجاء: أن يرجو العبد رحمة الله العامة ورحمته الخاصة به، فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات وغفران ما تاب منه من الزلات، ويعلق رجاءه بربه في كل حالة من أحواله.

وذكر الله الإنابة في مواضع كثيرة وأثنى على المنيبين وأمر بالإنابة إليه، وحقيقة الإنابة: انجذاب القلب إلى الله في كل حالة من أحواله ينيب إلى ربه عند النعماء بشكره، وعند الضراء بالتضرع إليه، وعند مطالب النفوس الكثيرة بكثرة دعائه في جميع مهماته، وينيب إلى ربه باللهج بذكره في كل وقت. والإنابة أيضاً: الرجوع إلى الله بالتوبة من جميع المعاصي، والرجوع إليه في جميع أعماله وأقواله؛ فيعرضها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فتكون الأعمال والأقوال موزونة بميزان الشرع.

أمر تعالى بالإخلاص، وأثنى على المخلصين وأخبر أنه لا يقبل إلا العمل الخالص. وحقيقة الإخلاص أن يقصد العامل بعمله وجه الله وحده وثوابه. وضده الرياء والعمل للأغراض النفسية.

نهى الله عن التكبر وذم الكبر والمتكبرين، وأخبر عن عقوباتهم العاجلة والآجلة.

والتكبر هو: رد الحق واحتقار الخلق. وضد ذلك التواضع فقد أمر به وأثنى على أهله وذكر ثوابهم، فهو قبول الحق ممن قاله، وأن لا يحتقر الخلق بل يرى فضلهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه.

العدل هو: أداء حقوق الله وحقوق العباد، والظلم: عكسه، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصي والشرك وظلم العباد في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

الصدق هو: استواء الظاهر والباطن على الاستقامة على الصراط المستقيم، والكذب بخلاف ذلك.

حدود الله هي: محارمه، وهي التي يقول فيها: ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾، ويراد بها: ما أباحه الله، وحلله، وقدره، وفرضه، فيقول فيها: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾.

الأمانة هي: الأمور التي يؤتمن عليها العبد؛ فيشمل ذلك أداء حقوق الله وخصوصاً الخفية، وحقوق خلقه كذلك.

العهود والعقود يدخل فيها التي بينه وبين الله وهو: القيام بعبادة الله مخلصاً له الدين، والتي بينه وبين العباد من المعاملات ونحوها.

الحكمة والقوام: فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي.

والإسراف والتبذير: مجاوزة الحد في الإنفاق. والتقتير والبخل عكسه: التقصير في النفقات الواجبة.

المعروف: اسم جامع لكل ما عرف حسنه ونفعه شرعاً وعقلاً، والمنكر عكسه.

الاستقامة: لزوم طاعة الله وطاعة رسوله على الدوام.

مرض القلب هو اعتلاله، وهو نوعان: مرض شكوك في الحق، ومرض شهوة للأمور المحرمة.

النفاق: إظهار الخير وإبطان الشر؛ فيدخل فيه النفاق الاعتقادي، والنفاق العملي.

القرآن كله محكم، وأحكمت آياته من جهة موافقتها للحكمة، وأن أخباره أعلى درجات الصدق، وأحكامه في غاية الحسن، وكله متشابه من جهة اتفاقه في البلاغة، والحسن، وتصديق بعضه لبعض، وكمال اتفاقه، ومنه محكم ومتشابه من جهة أنَّ متشابهه: ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعاني، ومحكمه واضح

مبين صريح في معناه، إذا رُدَّ إليه المتشابه اتفق الجميع واستقامت معانيه.

معية الله التي ذكرها في كتابه نوعان:

معية العلم والإحاطة وهي: المعية العامة، فإنه مع عباده أينما كانوا.

ومعية خاصة وهي: معيته مع خواص خلقه بالنصر واللطف والتأييد.

الدعاء والدعوة، يشمل دعاء العبادة، فيدخل فيه كل عبادة أمر الله بها ورسوله، ودعاء المسألة وهو: سؤال الله جلب المنافع ودفع المضار.

الطيبات: اسم جامع لكل طيب نافع من العقائد والأخلاق والأعمال والمآكل والمشارب والمكاسب. والخبيث ضد ذلك. وقد يراد بالخبيث: الرديء وبالطيب: الخيار؛ كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما رزقناكم ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾.

النفقة تشمل النفقة الواجبة كالزكاة والكفارة ونفقة النفس والعائلة والمماليك، والنفقة المستحبة كالنفقة في جميع طرق الخير.

التوكل على الله والاستعانة به، قَدْ أَمَرَ الله بها، وأثنى على المتوكلين في آيات كثيرة، وحقيقة ذلك: قوة اعتماد القلب على الله في جلب المصالح ودفع المضار الدينية والدنيوية، مع الثقة به في حصول ذلك.

العقل الذي مدحه الله وأثنى على أهله، وأخبر أنهم هم المنتفعون بالآيات، هو: الذي يفهم ويعقل الحقائق النافعة ويعمل بها، ويعقل صاحبه عن الأمور الضارة، ولذلك قيل له: حجر ولب ونهى؛ لأنه يحجر صاحبه، وينهاه عما يضره.

العلم هو: معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة، ومعرفة أدلتها وطرقها التي تهدي إليها. والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده الجهل.

لفظ «الأمة» في القرآن على أربعة أوجه: يراد به الطائفة من الناس، وهو الغالب، ويراد به: المدة، ويراد :به الدين والملة، ويراد به: الإمام في الخير.

لفظ «استوى» في القرآن على ثلاثة أوجه:

إن عُدِّيَ بعلى كان معناه العلو والارتفاع ﴿ثم استوى على العرش﴾.

وإن عُدِّيَ بإلى؛ فمعناه قصد؛ كقوله: ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات﴾.

وإن لم يعدّ بشيء؛ فمعناه كَمُل كقوله تعالى: ﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾.

التوبة: وردت في آيات كثيرة الأمر بها، ومدح التائبين وثوابهم، وهي: الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً.

الصراط المستقيم الذي أمر الله بلزومه وأثنى على المستقيمين عليه هو: الطريق المعتدل الموصل إلى رضوان الله وثوابه، وهو متابعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وكل أحواله.

الذكر لله الذي أمر به، وأثنى على الذاكرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل هو: عند الإطلاق يشمل جميع ما يقرب إلى الله من عقيدة، أو فكر نافع، أو خلق جميل، أو عمل قلبي، أو بدني، أو ثناء على الله، أو تسبيح ونحوه، أو تعلم أحكام الشرع الأصولية والفروعية، أو ما يعين على ذلك، فكله داخل في ذكر الله.

﴿فصل﴾

وقد تكرر كثير من أسماء الله الحسنى في القرآن بحسب المناسبات، والحاجة داعية إلى التنبيه إلى معانيها الجامعة فنقول:

قد تكرَّر اسمُ الرّبُّ في آيات كثيرة، فالرَّبُّ هو المربِّي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم، وأخصُّ من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم؛ ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة.

الله هو المألوه المعبود ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال.

الملك، المالك، الذي له الملك فهو الموصوف بصفة الملك، وهي صفات العظمة والكبرياء والقهر والتدبير، الذي له التصرف المطلق في الخلق والأمر والجزاء، وله جميع العالم العلوي والسفلي، كلهم عبيد ومماليك ومضطرون إليه.

الواحد، الأحد، وهو: الذي توحد بجميع الكمالات، بحيث لا يشاركه فيها مشارك.

ويجب على العبيد توحيده عقداً وقولاً وعملاً، بأن يعترفوا بكماله المطلق، وتفرده بالوحدانية، ويفردوه بأنواع العبادة.

الصمد وهو: الذي تقصده الخلائق كلها في جميع حاجاتها، وضروراتها

وأحوالها؛ لما له من الكمال المطلق في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

العليم، الخبير وهو: الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل؛ فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

الحكيم وهو: الذي له الحكمة العليا في خلقه، وأمره الذي أحسن كل شيء خلقه ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾، فلا يخلق شيئاً عبثاً ولا يشرع شيئاً سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك: فيحكم بين عباده في شرعه، وفي قدره، وجزائه، والحكمة: وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها.

الرحمٰن، الرحيم، البر، الكريم، الجواد، الرءوف، الوهاب هذه الأسماء تتقارب معانيها، وتدل كلها على اتصاف الرب بالرحمة والبر والجود والكرم، وعلى سعة رحمته ومواهبه التي عم بها جميع الوجود بحسب ما تقتضيه حكمته، وخص المؤمنين منها بالنصيب الأوفر والحظ الأكمل، قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون...﴾ الآية. والنعم والإحسان كله من آثار رحمته وجوده وكرمه، وخيرات الدنيا والآخرة كلها من آثار رحمته.

السميع لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات.

البصير الذي يبصر كل شيء وإن دقَّ وصغر، فيبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويبصر ما تحت الأرضين السبع كما يبصر ما فوق السماوات السبع، وأيضاً سميع بصير بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة.

الحميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها ومن الصفات أكملها، ومن الأفعال أتمها وأحسنها؛ فإنَّ أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل.

المجيد، الكبير، العظيم، الجليل وهو الموصوف بصفات المجد والكبرياء، والعظمة والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجلُّ وأعلى، وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه وأصفيائه، قد مُلِئت قلوبهم من تعظيمه وإجلاله والخضوع له والتذلل لكبريائه.

العفوُّ، الغفور، الغفار الذي لم يزل ولا يزال بالعفو معروفاً، وبالغفران والصفح عن عباده موصوفاً، كل أحد مضطر إلى عفوه ومغفرته كما هو مضطر إلى رحمته

وكرمه، وقد وعد بالمغفرة والعفو لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾.

التَّواب الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين، فكل من تاب إلى الله توبة نصوحاً تاب الله عليه، فهو التائب على التائبين: أولاً بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم قبولاً لها، وعفوًا عن خطاياهم.

القدُّوس، السلام أي المعظَّم المنزَّه عن صفات النقص كلها، وأن يماثله أحد من الخلق، فهو المتنزه عن جميع العيوب، والمتنزه عن أن يقاربه أو يماثله أحد في شيء من الكمال ﴿ليس كمثله شيء﴾، ﴿ولم يكن له كفوًا أحد﴾، ﴿هل تعلم له سميًا﴾، ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ فالقدُّوس كالسلام ينفيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتفى ثبت الكمال كله.

العلي، الأعلى وهو: الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه: علو الذات، وعلو القدر والصفات، وعلو القهر، فهو الذي على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف، وإليه فيها المنتهى.

العزيز الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع؛ فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة، وخضعت لعظمته.

القوي، المتين هو في معنى العزيز.

الجبَّار هو بمعنى «العلي الأعلى»، وبمعنى «القهَّار»، وبمعنى «الرءوف» الجابر للقلوب المنكسرة، وللضعيف العاجز ولمن لاذ به ولجأ إليه.

المتكبر عن السوء والنقص والعيوب، لعظمته وكبريائه.

الخالق، البارىء، المصور الذي خلق جميع الموجودات، وبرأها وسواها بحكمته وصورها بحمده وحكمته، وهو لم يزل ولا يزال على هذا الوصف العظيم.

المؤمن الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي

أرسل رسله، وأنزل كتبه بالآيات والبراهين، وصدق رسله بكل آية وبرهان يدل على صدقهم، وصحة ما جاؤوا به.

المهيمن المطلع على خفايا الأمور، وخبايا الصدور، الذي أحاط بكل شيء علماً.

القدير كامل القدرة، بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبرها، وبقدرته سواها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، وبقدرته يقلب القلوب ويصرفها على ما يشاء ويريد.

اللطيف الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والبواطن والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين، الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى «الخبير» وبمعنى« الرءوف».

الحسيب هو العليم بعباده، كافي المتوكلين، المجازي لعباده بالخير والشر بحسب حكمته، وعلمه بدقيق أعمالهم وجليلها.

الرقيب المطلع على ما أكنته الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات، وأجراها على أحسن نظام وأكمل تدبير.

الحفيظ الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أولياءه من وقوعهم في الذنوب والهلكات، ولطف بهم في الحركات والسكنات، وأحصى على العباد أعمالهم وجزاءها.

المحيط بكل شيء علماً وقدرة ورحمة وقهراً.

القهار لكل شيء، الذي خضعت له المخلوقات، وذلت لعزته وقوته وكمال اقتداره.

المقيت الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات، وأوصل إليها أرزاقها وصرَّفها كيف يشاء بحكمته وحمده.

الوكيل المتولي لتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته وشمول حكمته، الذي تولّى أولياءه فيسرهم لليسرى وجنبهم العسرى وكفاهم الأمور؛ فمن اتخذه وكيلاً كفاه. ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾.

ذو الجلال والإكرام أي ذو العظمة والكبرياء، وذو الرحمة والجود والإحسان

العام والخاص، المكرم لأوليائه وأصفيائه، الذين يجلونه ويعظمونه ويحبونه.

الودود الذي يحب أنبياءه ورسله وأتباعهم ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه ودًّا وإخلاصاً وإنابة من جميع الوجوه.

الفتاح الذي يحكم بين عباده بأحكامه الشرعية، وأحكامه القدرية، وأحكام الجزاء، الذي فتح بلطفه بصائر الصادقين، وفتح قلوبهم لمعرفته ومحبته والإنابة إليه، وفتح لعباده أبواب الرحمة والأرزاق المتنوعة، وسبب لهم الأسباب التي ينالون بها خير الدنيا والآخرة ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾.

الرزاق لجميع عباده فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها. ورزقه لعباده نوعان: رزق عام شمل البر والفاجر والأولين والآخرين وهو رزق الأبدان، ورزق خاص وهو رزق القلوب وتغذيتها بالعلم والإيمان، والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاص بالمؤمنين على مراتبهم منه بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

الحكم، العدل الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه؛ فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يحمِّل أحداً وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه، ويؤدي الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حق إلا أوصل إليه حقه، وهو العدل في تدبيره وتقديره ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾.

جامع الناس ليوم لا ريب فيه، وجامع أعمالهم وأرزاقهم فلا يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وجامع ما تفرق واستحال من الأموات الأولين والآخرين بكمال قدرته وسعة علمه.

الحي، القيوم كامل الحياة، والقائم بنفسه، القيوم لأهل السماوات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم وجميع أحوالهم، فالحي الجامع لصفات الذات، والقيوم الجامع لصفات الأفعال.

النور نور السماوات والأرض، الذي نور قلوب العارفين بمعرفته والإيمان به، ونور أفئدتهم بهدايته، وهو الذي أنار السماوات والأرض بالأنوار التي وضعها، وحجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

بديع السماوات والأرض؛ أي خالقهما ومبدعهما في غاية ما يكون من الحسن، والخلق البديع، والنظام العجيب المحكم.

القابض، الباسط يقبض الأرزاق والأرواح، ويبسط الأرزاق والقلوب، وذلك تبع لحكمته ورحمته.

المعطي، المانع لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فجميع المصالح والمنافع منه تطلب وإليه يرغب فيها، وهو الذي يعطيها لمن يشاء، ويمنعها من يشاء بحكمته ورحمته.

الشهيد؛ أي: المطلع على جميع الأشياء، سمع جميع الأصوات خفيها وجليها، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه.

المبدىء، المعيد قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ ابتدأ خلقهم؛ ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، ثم يعيدهم؛ ليجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ويجزي المسيئين بإساءتهم، وكذلك هو الذي يبدأ إيجاد المخلوقات شيئاً فشيئاً، ثم يعيدها كل وقت.

الفعال لما يريد وهذا من كمال قوته ونفوذ مشيئته وقدرته أن كل أمر يريده يفعله بلا ممانع ولا معارض، وليس له ظهير ولا عوين على أي أمر يكون، بل إذا أراد شيئاً قال له: كن؛ فيكون، ومع أنه الفعال لما يريد، فإرادته تابعة لحكمته وحمده؛ فهو موصوف بكمال القدرة ونفوذ المشيئة، وموصوف بشمول الحكمة لكل ما فعله ويفعله.

الغني، المغني فهو الغني بذاته الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، لكماله وكمال صفاته؛ فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنيًا؛ لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقاً قادراً رازقاً محسناً؛ فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه؛ فهو الغني الذي بيده خزائن السماوات والأرض وخزائن الدنيا والآخرة، المغني جميع خلقه غنى عاماً، والمغني لخواص خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية.

الحليم الذي يدر على خلقه النعم الظاهرة والباطنة مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم، ويستعتبهم كي يتوبوا، ويمهلهم كي يثيبوا.

الشاكر، الشكور الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل، ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين، ويذكر من ذكره،

ومن تقرب إليه بشيء من الأعمال الصالحة: تقرب الله منه أكثر.

القريب، المجيب؛ أي: هو تعالى القريب من كل أحد. وقربه تعالى نوعان: قرب عام من كل أحد بعلمه وخبرته ومراقبته ومشاهدته وإحاطته، وقرب خاص من عابديه وسائليه ومحبيه، قرب لا يدرك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره من لطفه بعبده وعنايته به وتوفيقه وتسديده.

ومن آثاره: الإجابة للداعين والإنابة للعابدين؛ فهو المجيب إجابة عامة للداعين، مهما كانوا، وأينما كانوا، وعلى أي حال كانوا كما وعدهم بهذا الوعد المطلق؛ وهو المجيب إجابة خاصة للمستجيبين له المنقادين لشرعه، وهو المجيب أيضاً للمضطرين، ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين، وقويَ تعلقهم به طمعاً ورجاء وخوفاً.

الكافي عباده جميع ما يحتاجونه ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة، من آمن به وتوكل عليه، واستمد منه حوائج دينه ودنياه.

الأول والآخر والظاهر والباطن قد فسرها النبي ﷺ تفسيراً جامعاً واضحاً؛ فقال: «أنت الأول؛ فليس قبلك شيء، وأنت الآخِر، فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر؛ فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء»[(1)].

الواسع الصفات والنعوت ومتعلقاتها بحيث لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، واسع العظمة والسلطان والملك، واسع الفضل والإحسان، عظيم الجود والكرم.

الهادي، الرشيد؛ أي: الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع المنافع وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم هداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم منيبة إليه، منقادة لأمره، وللرشيد معنى، بمعنى «الحكيم» فهو الرشيد: في أقواله وأفعاله، وشرائعه كلها خير ورشد وحكمة، ومخلوقاته مشتملة على الرشد.

الحق في ذاته وصفاته، فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به، فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفاً، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفاً. فقوله

حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو حق؛ ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، وأن الله هو العلي الكبير﴾، ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾، ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال؟﴾، ﴿قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى ربه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي ـ غفر الله له ولوالديه ومشايخه وأحبابه وجميع المسلمين ـ آمين.

هذَا وباللهِ التَّوفيق وصلَّى اللهُ على نبينا محمَّدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ وسلم

والحمدُ لله ربِّ العالمينَ.